Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البديهة أتى بكل عجيب، ومن كان قليل البضاعة، راكد الذهن وأد المعاني في مهدها، وأصبح اصطناعها جناية على الأساليب.

وإذاً فطريقة القاضي الفاضل لا يصلح لها غيره أو عديله... ألا تراهم يقولون: «كل فاضل بعد الفاضل فضله[1]»، ولا عجب فقد كان أبا عذرتها، وابن بجدتها، يقول العماد في خريدته:

«رب القلم والبيان، واللسن واللسان، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرزة، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت الصنائع، يخترع الأفكار ويفترع الابكار، ويطلع الأنوار، ويبدع الأزهار، وهو ضابط الملك بآرائه، رابط السلك بألائه؛ إن شاء أنشأ في يوم واحد، بل في ساعة واحدة ما لو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة... أين قس من فصاحته، وأين قيس في مقام حصافته، ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته؟»[2]. وهاك طرفاً من أسراره البلاغية التي غلبت على رسائله.

(أ) التورية:

لم يكن للتورية شأن يذكر قبل القاضي الفاضل، وقصارى ما ورد منها نبذ يسيرة في «المغرب» والخريدة: فلما جاء الفاضل نقلها لأول مرة من الشعر إلى النثر، وقد أشار الحموي إلى أنه هو الذي عصر سلافتها لأهل عصره.. يقول: «وأما التورية والاستخدام فما تنبه لمحاسنها إلا من تأخر من الشعراء والكتاب وتضلع من العلوم، وتطلع من كل باب، وأظن أن القاضي الفاضل رحمه الله ـ هو الذي ذلل منهما الصعاب، وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب»[3].

---

(١) نهاية الأرب ٨/١

(٢) مرآة الزمان، لابن الجوزي ٨/٣٠٤، وفيات الأعيان ١/٢٨٥.

(٣) خزانة الأدب ٢٤٣.